موقف الاستشراق من الأدب العربي الحديث

أ. بلوافي محمد،
المركز الجامعي تامنغست

ملخص البحث

هل يمكن القول إن اهتمام الاستشراق الحديث بالآداب العربية في العصر الحديث والفترة المعاصرة قد خفت حدته مقارنة بما كانت عليه الحال في العهود القديمة؟ أم أنه مجرد خمول سطحي، لا يكاد يعكس بصدق عمق أهمية هذا الأدب في مسار اهتماماته؟

هذا ما حاولت أن أجيب عنه مبينا موقف الاستشراق من الأدب العربي في العصر الحديث، بوصفه عصرا تميز خاصة باحتكاك الأدب العربي بالآداب الأوربية والعالمية فأثر وتأثر، وكان لذلك مظاهره وانعكاساته.

OOO

منذ بداية الاستشراق البعيدة والغرب يهتم بكل ما صدر عن المسلمين، فهم الذين أنشأوا مئات الأقسام العلمية، كما تحتفظ مكتباتهم بألوف المخطوطات في شتى المعارف، وقد ثبت أن بعض الأدباء في الغرب تأثروا بالأدب العربي في عصور ازدهار الأمة الإسلامية.

والاهتمام بالأدب العربي في الغرب لا ينبع من ترف فكري، ذلك أن دراسة الأدب مهمة لدراسة الشخصية التي أنتجت هذا الأدب، يقول سمايلوفيتش: إن الأدب بالنسبة للعرب "يعد ديوانها، ويتأمل تاريخها، ويبرز عقليتها، ويمثل انفتاحها، ويدفع بقدمها إلى الأمام...وظل الأدب العربي بشعره ونثره من الأمور التي شغف بها الاستشراق محاولاً إلى معرفة العرب واتجاههم."[1]

والأدب كما يقول عاصم حمدان "في كل العصور وعند جميع الأمم- هو تعبير عن هوية- أي أمة – ومنطلقاتها الحضارية وإرثها التاريخي، ولهذا كان اهتمام الغربيين كبيراً بالتراث العربي القديم، لأنه كان تعبيراً حقيقياً عن

هويتنا الحضارية. ولذلك اعترف أكثر من مستشرق بتأثر الغرب بالأدب العربي القديم ومن هؤلاء مثلاً إدموند بوزوورث – Edmund Boseworth رئيس قسم الدراسات الشرقية بجامعة مانشستر، الذي شهد بتأثير الأدب العربي في الأديب الإنجليزي، صاحب كتاب "قصص كانتير بري" Canterbury Tales. وغيره مثل بوكاتشيو في مجموعته المعروفة باسم ديكاميرون "الأيام العشرة" De- Camerone.[2]

ويؤكد عاصم حمدان من خلال الاهتمام بالأدب في عصور الازدهار وقلة الاهتمام بالعصر الحاضر ـ نسبياً ـ أن نقطة الضعف التي يجدها الغرب – اليوم – في أدبنا، هي ترديدنا لبعض نظرياته في الأدب، بعد لفظه لها بعشرات السنين، ثم هو ترديد لا استيعاب ولا تمثل فيه..." ويضيف حمدان؛ بأن بعض المستشرقين " قدموا النصيحة للأدباء العرب بأن يكون شعرهم عربياً خالصاً " لأنه إنما يأخذ مكانته بين الآداب العالمية بتفرده وأصالته." [3]

ومن الأسباب الأخرى التي حالت دون الاهتمام بالأدب العربي الحديث ما أشار إليه سمايلوفتيش في رسالته حيث لخصها في:

1- حداثة البحوث في هذا المجال.

2-أن الأبحاث في الاستشراق" لم تتبلور بعد فكرياً أو منهجياً أو فلسفيا."

3- اهتمام الغرب يتركز في الوقت الحالي على النواحي العقيدية والدينية والسياسية.

4- عدم وجود هيئة تتبع بحوثه التي تتعلق بالاتجاهات الحديثة في العالم العربي الإسلامي.

5- لم يستطع الأدب الحديث بعد أن يفرض وجوده على هيئات العلم في العالم، "وإن خطا خطوات جبارة."

6- إن مراكز الاستشراق نفسها لا تشجع معرفة طلابها بإنتاج الأدب العربي الحديث حيث إنها تفرض عليهم البحث في الأدب القديم.[4]

هذه الأسباب لم تعد كلها صحيحة في العصر الحاضر بعد أكثر من عشرين سنة من إعداد رسالة سمايلوفيتش. فقد ازداد عدد مراكز البحوث الغربية والأقسام العلمية التي تهتم بالأدب الحديث ولكنه اهتمام انتقائي كما سنرى.

وقد اهتم صالح جواد الطعمة بمسألة الترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية، وذكر أن المسؤولية تقع على عاتق المستشرقين في تعريف قرائهم بالأدب العربي الحديث، ولكنهم "كانوا ولا يزالون يوجهون جل اهتمامهم العلمي إلى غير الأدب من أوجه الحياة العربية المعاصرة، ولهذا لم يترجم إلاّ عدد ضئيل من الأعمال الأدبية الحديثة.." ويضيف بأن ما ترجموه أيضاً لم يسوّق تجارياً، ولذلك لم يجد الاستجابة المشجعة لدى النقاد أو الأدباء غير العرب إلاّ في حالات نادرة.".[5]

وقد حاول الطعمة تتبع المجلات الأمريكية مثل (مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية) و(مجلة العالم الإسلامي) فوجد أن المجلة الأولى لم تقدم سوى "إشارات عابرة في باب نقد الكتب." وكذلك الحال بالنسبة للمجلة الثانية. ويضرب على ذلك مثالاً بما ورد في مجلة العالم الإسلامي بقوله "وتتجلى قلة الاهتمام بالأدب في التعريف الموجز الذي ورد في المجلة بشأن ترجمة آربري لمسرحية (مجنون ليلى) لأحمد شوقي، و المسرحية من خمسة فصول مترجمة من العربية ...وهذه إحدى مسرحياته الست وأكثرها شيوعاً وقد شاهدها المترجم ممثلة في القاهرة. ويضيف معلقاً: " لا أحسب أننا بحاجة إلى الوقوف طويلاً عند ما تعنيه أمثال هذه التعليقات من افتقار إلى الفهم والذوق الأدبيين لتراث غني بإنجازاته."[6]

ويؤكد الطعمة في موضع آخر أن الأدب العربي الحديث قد" أهمل وهمّش أو أقصي كلياً من الأدب العالمي.[7]

ويرى إدوارد سعيد في المقدمة التي كتبها لكتاب (أيام الغبار) لحليم بركات أن الأدب العربي هو من الآداب المحظورة.[8]

وليت الأمر توقف عند الإهمال كما جاء في أقوال الدكتور الطعمة، فإن هناك من الآراء في اللغة العربية وآدابها ما يدهش المرء، تصدر في دراسات تزعم لنفسها الموضوعية والنزاهة؛ فيرى بعض الغربيين أن اللغة العربية نفسها تقف "عقبة" وأنها "طريق مسدود" وأنها "زخرفة غير واضحة" أو "منمقة" وصعبة كأداة على الترجمة إلى لغة كاللغة الإنجليزية، ويضيفون إن اللغة العربية تمثل ستاراً حديدياً لغوياً أبعدت الغرب عن الثقافة العربية.[9]

ومرة أخرى نؤكد أن الاهتمام بالأدب العربي الحديث قد ازداد على مر السنين فهناك أكثر من دورية تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أوروبا تتخصص في الأدب العربي أو الدراسات العربية فهناك مثلاً (المجلة الدورية للدراسات العربية Arab Studies Quarterly، ومجلة المختار في دراسات الشرق

الأوسط Digest of Middle East Studies التي بدأت في الصدور منذ ست سنوات. ومجلة آداب الشرق الأوسط (Middle East Literature) و(أدبيات) (Literary Articles)) التي تتعاون في إصدارها جامعة أكسفورد البريطانية وجامعة داكوتا الشمالية بالولايات المتحدة الأمريكية والتي بدأت في الصدور منذ عام 1996م.

وإذا رجعنا إلى الوراء أكثر نجد أن بعض الباحثين الغربيين من أمثال المؤرخ البريطاني جورج ينج Young George يرى أن اللغة العربية هي من أصعب اللغات الأدبية التي تعيق إلى حد بعيد التعبير الأدبي، ويضيف "وليس من المستحيل أنه في المستقبل القريب سوف تستبدل مصر اللغة الفرنسية باللغة العربية كما فعلت الأمم الأخرى في شمال أفريقيا."[10]

وكتب إدوارد بدين حول نشاط الترجمة إلى الألمانية من اللغة العربية في سويسرا بأنه نشاط فاتر بالمقارنة مع ما يترجم إلى الإنجليزية أو الفرنسية عن الألمانية. ويرجع أسباب هذا الفتور إلى "قلة من يجيدون فهم الأدب العربي الحديث بعمقه اللغوي والاجتماعي والحضاري والسياسي، "... وكذلك يتساءل "هل لدى المترجم المقدرة اللغوية والعمق الحضاري ولو جزئياً بالنسبة للألمانية بحيث يتمكن من إيصال إنتاج الأدب العربي المترجم إلى جمهور القراء الألمان بشكل سائغ وجميل ومفهوم؟.." وهو كذلك يرى أن المشكلة الثالثة تكمن في أن دور النشر التي تهتم بالأدب العربي عددها قليل، وعدد الكتب التي تستطيع نشرها محدود جداً بالإضافة إلى قلة عدد المشترين مما يرفع تكلفة الكتاب ولا يجعله مرغوباً.[11]

ورغم كل هذه الآراء بأن الترجمة محدودة وأن الاهتمام قليل، نجد هناك من يرى أن الاهتمام يتزايد؛ ومن هؤلاء محمد أحمد حمدون حيث يقول "إن الاهتمام يتزايد عند المعاصرين من المستشرقين بالأدب الحديث، وقضايا العالم العربي، وفيما يتعلق بالأدب العربي الحديث فإن الترجمة في كتب مستقلة وفي الدوريات (رغم كثرتها) أخذة في الزيادة حيث ترجمت أعمال لأكثر المؤلفين العرب في معظم اللغات الأوروبية.[12]

ويبدو لي أن هذا الرأي متفائل جداً؛ فالواقع لا يؤيد ذلك بل إن الاهتمام الغربي انتقائي وقليل بالنسبة لما يصدر في العالم العربي ولذلك أسبابه التي ذكرنا بعضها آنفاً.

ومن نماذج الاهتمام المتحيز ضد الأدب العربي ما كتبه ريجيس بلاشير زاعماً أن الأدب العربي يفتقد عموماً إلى الإبداع والعبقرية وان "الفعالية

الأدبية، في أدوار عدة، بل في الأدوار الهامة تظل جماعية بمعزل عن كل خلق فردي حقاً، وإذا ما اتفق أن وجدنا خلافاً لذلك فإننا لا نلبث إذا أمعنا النظر أن ندرك أن الظاهرة حركة تجديد أوجدتها فئة أو جماعة أدبية أو هي صفة خاصة إقليمية .... وعلى الجملة فالأدب العربي – وقد نلحق به آداب الشرق الأدنى- لم يعرف إلاّ في ومضات خاطفة، تلك الحاجة المرهفة الخصبة للتجديد، والتميز، والتعارض ".[13]

ويرد محمد العزب على بلاشير في مقالة أكد فيها حقيقة وجود الإبداع والعبقرية في الأدب العربي على مر العصور، ولم يكتف بما كتبه النقاد المسلمون منذ القديم ولكنه رجع إلى بعض ما كتبه كارل بروكلمان في هذا المجال. وقدم نماذج من الشعراء المسلمين على مر العصور".[14]

ولكن ألا يمكن أن يكون هذا الرأي الذي قال به بلاشير، إنما ينطلق من النظرة الاستعلائية التي تطبع الغرب عموماً فلا يرون عبقرية إلاّ عبقريتهم أو عبقرية من كان مقلداً لهم؟

وقد كان للمستشرقين الذين درّسوا في الجامعات المصرية وكذلك الطلاب الذين ابتعثوا إلى الغرب لدراسة الأدب العربي على أيدي المستشرقين دور في إفساد "الذائقة الأدبية" كما يقول الأستاذ محمود شاكر -رحمه الله- وهو ما عانى منه طيلة حياته وظهر واضحاً في معاركه الأدبية المتعددة ومنها على سبيل المثال تلك التي حدثت مع لويس عوض التي نجد تفاصيلها في كتابه (أباطيل وأسمار) ومع طه حسين رحمه الله في كتابه المتنبي، ورده على طه حسين في قضية الشعر الجاهلي ونظرية الانتحال.[15]

ولا يمكننا أن نطلب من الغير أن يهتم بأدبنا الحديث، ولكننا نرى أن هذا الاهتمام يميل إلى التركيز على جوانب معينة من أدبنا العربي؛ فهذه مستشرقة تؤكد أن الاستشراق الألماني ما زال مهتماً بقصص ألف ليلة وليلة حين تقول "لا يوجد أثر أدبي ينتمي إلى الشرق كان له التأثير الذي خلفته حكايات ألف ليلة وليلة منذ ترجمتها عام 1706م على الآداب الأوروبية بما فيها الأدب الألماني"[16]، ولكنها تضيف في اللقاء نفسه بأنها مهتمة أيضاً بالأدب الحديث وتسوق لذلك مبرراً هو أن الأدب "يشكل في اعتقادي أحد أفضل السبل للتقارب بين الشعوب، لأننا نستطيع أن نتلمس من خلال ما ينتجه شعب من أدب ملامح الوجه الحقيقي لهذا الشعب".[17]

وقد كان البعض يرى أن فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب عام 1988م(1408هـ) لم يؤد إلى زيادة الاهتمام بالأدب العربي الحديث، لكن محفوظ نفسه نال اهتماماً كبيراً في هذه الفترة والتي تلتها، ولكن هذا لم ينعكس على الأدب العربي عموماً.[18]

إحالات:

[1] أحمد سمايلوفيتش . فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر. (القاهرة : المؤلف، بدون تاريخ) ص492.

[2] عاصم حمدان."لماذا ومتى يهتم الأوروبيون بتراثنا." في صحيفة المدينة المنورة، 1408/11/32هـ>، (ملحق التراث) انظر أيضا كتاباً صدر للمؤلف حديثاً بعنوان دراسات مقارنة بين الأدبين العربي والغربي . المدينة المنورة ، نادي المدينة المنورة الأدبي ، 1418، 1997، الصفحات 39 ومابعدها.

[3] المرجع نفسه.

[4] سمايلوفيتش، مرجع سابق ص 509.

[5] صالح جواد الطعمة . الشعر العربي الحديث مترجماً.(الرياض: النادي الأدبي ن 1401-1981م) ص 10.

[6] صالح الطعمة. " التلقي الأمريكي للأدب العربي " في الاستشراق (بغداد :دار الشؤون الثقافية العامة) ع2 شباط 1987م.ص 71-76.

[7] Saleh J. Altoma. “The Reception of Najib Mahfouz in American Publications.” In Comparative and General Literature. (Bloomington: Indiana University Press, 1993) p.p. 164-177.

[8] Edward Said. Orientalism.

[9] الطعمة، بحثه عن نجيب محفوظ بالغة الإنجليزية (مرجع سابق) ص 164 ويشير فيه إلى بعض الباحثين الغربيين من أمثال فاولزFowles وكيسلر Kessler و هوروتز Horwitz وغيرهم.

[10] Toma, Op., cit. Quoting George Young. Egypt. (London: E. Benn, 1972 p.284-285

[11] إدوارد بدين. " ترجمة الأدب العربي الحديث إلى الألمانية في سويسرا." في الاستشراق. (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة) ع4 شباط 1990ص 216-219.

[12] محمد احمد حمدون." وقفات استقرائية حول جهود المستشرقين في الأدب العربي ." في المنهل ، عدد 471 رمضان/شوال 1409 أبريل /مايو 1989 ص 168-186.

[13] رجيس بلاشير . تاريخ الأدب العربي . ترجمة إبراهيم الكيلاني (تونس :الدار التونسية للنشر ، والجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986)ج1، ص 14.

[14] محمد احمد العزب." الدراسات الاستشراقية والأدب العربي." في القافلة ، رجب 1407.ص 4-6.

[15] - انظر كتاب محمود شاكر . رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. (جدة : دار المدني، 1407، 1987)

[16] " حوار مع د. ريجينا قرشولي المستشرقة الألمانية " أجرى الحوار حسونة المصباحي . في مجلة المجلة. ع 684، 17-23مارس 1993.

[17] المرجع نفسه .

[18] عرض كتاب بدوي مصطفي : تاريخ موجز للأدب العربي الحديث (أكسفورد :كلاندون برس ،1993) في مجلة العالم العربي الحديث في البحث العلمي.ع 3، صيف 1994.ص 63.